الفصل السابع

مكانة العقل والحرية
فى القرآن الكريم

obeikandl.com

obeikandl.com

فى مجال الطعن فى القرآن الكريم عمد بعض المستشرقين إلى مقولة بأن القرآن الكريم يخلو من كلمة العقل ومن كلمة الحرية، ومن ثم فإن أتباعه لا يؤمنون بالعقل ولا بالحرية، وأنهم يعبدون النصوص، فلا مجال للإبداع، كما لا مجال للتطور ما دامت النصوص قائمة وجامدة، ومن هذا المنطلق عمد الغرب بشكل عام إلى تشجيع جميع الباحثين فى العالم الإسلامى ممن أسموهم المصلحين لكسر الجمود فى العقيدة الإسلامية وشجعوا هؤلاء على تحدى النصوص أو ما يسمى بسلطة النص فى الإسلام. وقد تعددت موجات الخارجين على النصوص والداعين إلى هجرها أو الثورة عليها ، واحتفل الغربيون احتفالاً كبيراً بهذه الشخصيات؛ لأنها اخترعت جديداً وسدت نقصًا خطيراً فى القرآن الكريم !! .

من ناحية أخرى، شهد العالم الإسلامى انشقاقًا كبيراً بين مفكريه منذ القرن الرابع الهجرى بعد انتهاء عصر النبوة مباشرة بين الفرق الفكرية المختلفة التى تمحور الخلاف بينها حول فكرة الجبر والاختيار . ولا يخفى أن هذا الجدل لا يزال يجد ظلاله فى الجدل الدائر بين الإسلاميين والعلمانيين، فالعلمانيون يروجون لعقل يكسر القيود الحديدية أو يقفز فوق الثغرات النصية التى يعانى منها القرآن!! .

أما الإسلاميون، فيتمسكون بأن النص القرآنى صالح إلى يوم الدين، وأن التطور لا يمكن أن يشمل النص بأى حال، كما لا يمكن أن يمس مبادئ التفسير المعترف بها عند الفقهاء ولا قواعد الاستنباط التى اجتهد فيها السلف الصالح.

وهذه المعارك ليست جدلاً فكريًا خالصًا، ولكنها تؤدى أحيانًا إلى تصفيات جسدية وأعمال إرهابية يبرأ منها الإسلام والثقاة من المسلمين كما تم تكفير الكثيرين، واعتقد بعض الإسلاميين أنهم أوصياء على هذا الدين فى نظر التيار العلمانى مما مزق الصفوف بين أبناء الأمة الإسلامية وشغلها عن معركة حقيقية فى بناء الحياة الصحيحة التى تنسجم مع المفاهيم الحقيقية للقرآن الكريم.

من ناحية أخرى، فإن هذا الجدل قد ألقى بظلال قاتمة على فهم الغرب للإسلام، وأن هذا الفهم يبدأ أولاً بتمحيص النصوص القرآنية؛ ولذلك اخترنا التركيز على القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول للشريعة الإسلامية والفكر الإسلامى تمامًا مثلما يركز آخرون على السنة النبوية المطهرة باعتبارها الركن الثانى المفسر والمكمل والمجسد لأحكام القرآن الكريم، واستنادًا إلى ما يتمتع به الرسول ﷺ من سلطة تشريعية مصدرها القرآن الكريم، فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر: ٧]، وجاءت الصيغة فى القرآن عامة فى نصها حتى لو كانت خاصة فى سبب نزولها، وما بين خصوصية السبب وعمومية النص وقعت معارك فكرية طاحنة، كذلك ما ورد فى قوله تعالى: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥].

واختلف المفكرون والمفسرون والفقهاء حول ما إذا كان هذا النص يتعلق بالرسول الكريم فى حياته وتدخله الشخصى فيما يعرضه المسلمون من منازعات أم أنه يمتد امتدادًا زمنيًا مطلقًا حتى بعد التحاق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى. وكذلك اختلف المسلمون حتى اليوم حول ما كان يعد فى نظرنا بديهيًا، وهو ما إذا كان الإسلام هو تلك الرسالة التى نزلت على محمد ﷺ أم أنها رسالة العامة الأساسية التى خرجت منها كل الرسالات الأخرى والتى حملتها شجرة الأنبياء ـ عليهم جميعًا الصلوات والتسليم ـ مثلما اختلف الفقهاء حول ما إذا كان الدين هو الإسلام بالمعنى السابق الذى يأتى فيمحو بقية الأديان الأخرى، أم أن الدين واحد وهو الإسلام فى معناه العام، وأن رسالة محمد ﷺ كانت خاتمًا لهذا الدين، وكتبت السطر الأخير فيه، فاكتمل بناء الدين الذى حمله الأنبياء جميعًا.

نحن نعتقد أن جوهر هذه الخلافات يعود إلى طريقة النظر للقرآن الكريم نظرة كلية تحليلية تنفذ إلى فلسفته العامة، ونظن أن قضية العقل والحرية تقع فى صلب هذه النظرة الأساسية والتأصيلية للقرآن الكريم، فقد ذكرنا فى مرات عديدة أن القرآن ليس كتابًا أو قاموسًا للمصطلحات، وأن ما يرد ويتجدد فى دنيا الناس قد لا يجد له مرادفًا فى القرآن أو نصًا مماثلاً؛ لأن القرآن يتحدث عن كليات وليس عن خصوصيات إلا فيما

يتطلبه المقام، فقد فصل مثلاً فى قضايا التركات؛ لأن الله يعلم بحكم علمه الأزلى بمن خلق أن المال يؤدى إلى الشقاق، وما دام قد حبب إلينا المال وجعل الإنسان يحب المال حبّا جمّا ويأكل التراث أكلاً لـمّا، فإن هذه الخصيصة المتردية فى طبيعة الإنسان تجعل الخلاف حول المال أمراً شائعًا؛ ولذلك جعل الله قواعد الميراث من الحدود التى لا يجوز الاقتراب منها أو التجرؤ عليها أو الاعتداء على ما تتطلبه من التزامات، ولكن القرآن الكريم تضمن كل وظائف العقل.

وعندما أصر بعض المستشرقين على إغفال القرآن لكلمة العقل كان رد بعض المتقدمين من الفقهاء أن العقل ليس موجوداً أصلاً ضمن أعضاء الإنسان، وأنه كطاقة فكرية مصدرها المخ، ولكن تحليل المخ لا يقدم شيئًا مفيداً بالنسبة لتلك الطاقة الإلهية التى تنبعث منه تمامًا كما يحمل الجسم الروح، فليس صحيحًا أنه كلما صلح الجسم صلحت الروح، ولكن المحقق أن الجسد هو وعاء الروح، فإذا تحطم بالقتل أو فنى بالموت فإن الروح تصعد إلى بارئها. كذلك رد هؤلاء المتقدمون بأن كلمة العقل وإن لم توجد فى القرآن الكريم إلا أن مرادفات العقل ووظائفه كثيرة الورود فيه، ولم يجد بعض العلمانيين المتنطعين ما يفيد حجتهم عندما خصصوا جزءًا من مؤلفاتهم لمكانة العقل فى الإسلام، ولعلهم بذلك قد انبهروا بعبادة العقل فى الغرب ونسيان خالق العقل ومبدعه كما أن هؤلاء لا يقرءون القرآن، وكأن قلوبهم غلف.

والحق أن العقل والحرية مقترنان فى القرآن الكريم؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عندما وجد الإنسان أضعف المخلوقات وأقلها شأنًا ولكنه بتسخير الله لهذه المخلوقات له جعله أفضل المخلوقات والسيد عليها والمتحكم فيها، وعندما تطوع بحمل الأمانة بعد أن أبى من هو أشد منه قوة أن يحملها وأشفق على نفسه منها، فإن الإنسان قد تجاسر على حملها وطلب دون أن يطلب منه ذلك، فأراد الله ـ سبحانه ـ أن يحصنه بما يمكنه من حمل هذه الأمانة، فأعطاه الأمانة وهى حرية العبادة والاختيار، ولكن الحرية والاختيار لا يمكن وجودها بغير العقل؛ لأن العقل هو مناط الاختيار وهو إطار الحرية؛ ولذلك فإن اقتران العقل بالحرية فى القرآن الكريم اقتران لا يقبل الجدل وسوف يضيق المقام إن نحن حشدنا الآيات الكريمة التى تدلل على ذلك، يكفى أن نشير إلى أن القرآن الكريم قد هدى الإنسان إلى الطريقين: الخير والشر، ولكن الهداية هى

هداية طريق، وأما التوفيق فى القيام بأعباء الطريق فهى هداية خاصة، بعبارة أخرى فإن اختيار الطريق هو شأن إنسانى، وأما توفيق الله له فى القيام بأعباء الطريق هو شأن إلهى، فإن اختار الإنسان طريق الشر وأصر عليه أعانه الله عليه، وإن اختار طريق الخير وتمسك به يسره الله له. فهى هداية توفيق، وليست هداية طريق.

والحق أن القرآن كان واضحًا وضوحًا مطلقًا فى بيان دور الإنسان الذى لا يمكن أن يقوم به بغير العقل والحرية، كما فى قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨] فالإلهام فى هذه الآية إلهام للفجور والتقوى، وقدم الفجور على التقوى لأسباب وتفسير اختلف عنده المفسرون والمحققون، فمن قائل بأن تقديم الفجور على التقوى هو إقرار بغلبة الشر على الخير فى نفس الإنسان، ومن قائل بأن التقديم والتأخير ليس له دلالة؛ لأن تقديم أحدهما على الآخر لا بد أن يستدعى من المفسرين تفسيرًا، ولكننا نعلم أن القرآن هو كلام الله، وأن الله يضع العبارات بالدقة التى تتفق مع قدرته وجلاله، فيقدم ويؤخر لغاية يعلمها، وقد تقصر أفهامنا عن إدراكها ولكن اجتهادنا فى نيلها مقدر ومطلوب. ونحن نظن أنه قدم الفجور على التقوى على خلاف ما جاء فى كل الآيات المتصلة فى القرآن الكريم كالتمايز بين أهل النار وأهل الجنة، كما فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦ - ٩]، وقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠] . . . إلى آخر تلك الآيات الدالة على هذه القاعدة.

ولما كانت النفس الإنسانية لغزًا مستغلقًا على صاحبها وأن أقسام النفس فى القرآن الكريم مصنفة وفقًا لمعايير الخير والشر، فإن الله لم يصنف هذه النفس إلا بعد أن احترم إرادة أصحابها، فإن شاء الإنسان أن تكون نفسه نفسًا طيبة أو نفسًا لوامة وأن تكون رقيبة عليه فى تصرفاته وأن تضبط هذه التصرفات وفقًا للمقاييس التى اختارها، فإن هذه النفس هى النفس المطمئنة التى انسجمت مع ناموس الله فى الأرض، وأما إذا أراد

الإنسان أن يستمع إلى هوى نفسه وأن يطلق العنان لهواه، فإن نفسه تصبح فى مصاف الأشقياء، وقد أوضح القرآن الكريم ذلك بشكل لا لبس فيه عندما أكد ـ سبحانه وتعالى ـ بشكل مباشر فى كثير من آيات الذكر الحكيم أن من نهى النفس عن الهوى، ومن خاف مقام ربه واتقى هو الذى عمد إلى تربية نفسه وتقويمها وتزكيتها خلافًا للذى تركها على سجيتها وشجع على اندفاعها. ومعلوم أن النفس البشرية مطبوعة على كل ما هو يسير وأن النفوس الأبية هى التى تلزم نفسها بالكثير من القيود الأخلاقية.

وإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أحب للإنسان أن يعبده بإرادة، وأن يبتهل إليه فى صلواته وأن يدعوه عند الحاجة، وأن يوقن بالإجابة، وأن الله يستمتع لذلك من عباده تطبيقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ من ناحية أخرى ولثقته فى ألوهيته قد خيَّر الإنسان بين أن يعبده وبين أن يكفر به، ولم يرتب أى نتيجة فى علاقة الإنسان بخالقه على القاعدة التى وضعها الله فى علاقة الإنسان بربه، فالرزق ليس مقترنًا بالإيمان بل إن رزق غير المؤمن قد يتسع ويثير الفتنة لدى ضعاف النفوس.

كذلك، فإن اقتران الحرية بالعقل قد جعلت وجود العقل والحرية سببًا للمسئولية، فلا مسئولية على غير العاقل ولا مسئولية على غير الحر، وإنما يتوقف قدر المسئولية على قدر توفر العقل والحرية بأقدار متفاوتة كما هو معلوم عند فقهاء الشريعة، بل إن مناط المسئولية فى جميع التشريعات الوضعية هو توفر العقل والحرية، فلا مسئولية على غير العاقل ولا مسئولية على من حرم حريته فى التصرف، وهذا ما راعته جميع التشريعات الوضعية والجنائية، فكيف يمكن ـ إذن ـ أن نتصور عقلاً مبدعًا بلا حرية، وكيف نتصور حرية بغير ضابط عقلى يوجهها التوجيه الصحيح ويضع لها ذلك العقال الذى نشأ بمعناه تأصيل لكلمة العقل، فالعقل هو ضابط الحرية، والحرية هى الوعاء الطبيعى لعمل العقل.

كذلك حسم القرآن الكريم قضية انطلاق العقل بحرية مطلقة نحو الإبداع، فأجاز ذلك وأوضح فى محكم آياته أن خشية الله تزداد كلما ازداد الإنسان علمًا؛ لقوله

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] والعلم هو مطلق العلم، وليس صحيحًا أو معقولاً ما قيده البعض من أن العلم المراد فى هذه الآية هو العلم الدينى فقط، وإذا كان العقل منحة من الخالق، فيجب أن يعلم الإنسان أن المانح يجب أن يشكر ويحمد ويعبد لهذه المنحة، ولا يمكن أن يستخدم العقل الممنوح للشطط، وإلا كان ذلك مخالفة لمنطق الأشياء؛ ولذلك لا يجوز بعد هذا الإيضاح أن يتحدث بعضنا عن محاولات التوفيق بين العلم والإيمان، فالإيمان يزداد بقدر زيادة العلم، وينقص بقدر نقص العلم.

وأخيرًا أطلق الله ـ سبحانه ـ عقل الإنسان وحريته فيما قدر له عندما قرر فى محكم آياته ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] حتى يحرر الإنسان من الآلهة البشرية وأصنام الدنيا، فلا يعبد سواه، ولا يخضع لغيره، ولا يحنى جبهته إلا عند الركوع فى الصلاة.

* * *